هنا أضع ألحاني .. هنا يهبط الوحي ..
وسط ذلك الصمت المهيب والسكون السائد ،
وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة . .
هنا في هذه الأغوار السحيقة والدياجير
المعتمة التي تبدو كأنها أعماق الأبدية
اللانهائية .

منتهى الفنان

لى صديق ومنذ أن سمعت بمبدأ السيريالية . . وشاهدت بعض الرسوم السيريالية ، أيقنت من أن صاحبى هذا لابد مندفع إلى أحضان السيريالية ، متبوىء عرشها فى أقرب حين بلا شريك ولا منازع .

وصاحبى فنان أصيل .. فنان جوهراً ومظهراً ، أوهو صورة نموذجية لفنان لا أكاد أقارن به نفسى ، حتى أقتنع تماماً أنه ليس بى من سمات الفنان شىء ، وإنى مخلوق طبيعى مادى جامد بارد خلو من كل ما يميز عبيد الله الفنانين .

وأذكر ذات مرة ، أنى ذهبت لزيارة رجل كبير محترم من أهل العلم والعرفان ، وجلس الرجل يرحب بى مقدماً لى علبة سجائره قائلا :

ـــ سيجارة ؟ !

ـــ أشكرك جداً ، أنا لا أدخن .

ـــ عجيبة ! إذاً أحضر لك قهوة ؟ !

ـــ ولا أشرب قهوة .

ـــ شاى إذاً ؟

ـــ ولا أذوق الشاى .

وضحك الرجل وغمز بطرف عينيه وقال متخابثاً :

ـ لو كان عندى كأساً من الويسكى لأتحفتك به ، لأنه يعز علىّ أن تزورنى ولا أقدم لك شيئاً .

ـ أنا لا أذوق الخمر .

ـ مدهش . . لا سجاير ، ولا قهوة ولا شاى ، ولا خمرة ، ولا حتى أى مكيف آخر ؟

ـ أبداً .. أبداً ، إنى غير ذى « كيف » ، لا سجاير ، ولا خمر ولا ميسر ، ولا ، ولا .

ـ ماشاء الله ، ماشاء الله . هكذا الاستقامة وإلا فلا . لابد إنك تصلى وتصوم .

ـ أبداً ، أبداً .

ـ لاتصلى ولاتصوم ؟

ـ ولم أصلى وأنا لا أرتكب ما تنهى عنه الصلاة ؟ ومم أستغفر ربى ..وأنا ما أتيت ذنباً . . إنى مخلوق كافى خيرى شرى .. إنى منهى عن الفحشاء والمنكر . . « خلقة » .

وأغرق الرجل فى الضحك ، وظنها مزحة .

ولكنى فعلا كذلك ، لا سجاير ولا قهوة ولا شاى ولاخمر ولاحشيش ، ولاصلاة ولاصوم ولاشىء أبداً . . أبعد كل هذا أكون فناناً ؟

أما صاحبي . . فقد كان فناناً بمعنى الكلمة . . فهو فوق ارتكابه لسلسلة الأشياء المبينة عاليه ، من خمر ومكيفات وصوم وصلاة . . كان مخلوقاً ممتعاً فى الغرابة . . مفرطاً فى الشذوذ .

وكان صاحبي — ولم يزل بالطبع — موسيقاراً من أساطين الموسيقى ومن عمدها فى هذا الجيل ، وكنت قد سمعته وسمعت عنه كثيراً قبل أن ألقاه ، وكنت أميزه دائماً بغرابة موسيقاه وطرافة أساليبه ، فهو يكاد يكون بين الموسيقيين نسيجاً وحده .

وعندما لقيته أول مرة دعانى إلى زيارته فى « المعبد » .

وكان لقاؤه حاراً مليئاً بالحفاوة والترحيب ، إذ تفضل واعتبرنى فناناً ، رغم خلوى من كل ميزات الفنان ، وعندما سألنى زيارته فى المعبد ، لم يحاول أن يزودنى بأى توضيح عن هذا المعبد ، كأنما هو شىء كان لزاماً علىّ أن أعرفه . . أو كأن كل إنسان له معبد يزوره الناس فيه .

وخجلت من أن أستوضحه ، خشية أن يتهمنى بالجهل ، وخشية أن يعرف أنه ليس لى معبد ، لأنه لو كان لى معبد ، لما سألته عن معبده .

وتركتها تمر ، دون استفسار أو استيضاح . . معتقداً

أنها دعوة عابرة ، أو « عزومة مراكبية » ، وأنه من الخير ألا أكشف نفسى ، مادمت لن أذهب .

وانغمرنا فى الحديث ، منسجمين تمام الانسجام ، حتى حان وقت الانصراف ومددت يدى أودعه وأخبره بأنى سعيد بلقائه متشرف بمعرفته ، وإنى أتمنى أن أراه كثيراً .

وضغط على يدى بشدة ، وقال فى لهجة مصرة مؤكدة :

— أنا منتظر زيارتك للمعبد .

— إن شاء الله .

— اليوم الساعة الثامنة والنصف مساء .

ورأيت الدعوة جادة ، والعزومة مؤكدة ، فبدا على وجهى التردد . . وهممت بأن أعتذر . . ولكنه أردف مؤكداً :

— لن أقبل منك اعتذاراً ، لا بد من حضورك ، إنى أتوق إلى أن أجلس معك جلسة طويلة ، وستسرك الجلسة كثيراً . إنى واثق من ذلك ، فأنت فنان يلائمك جو المعبد الشاعرى الهادىء . . أنا فى انتظارك .

وكان هذا بمثابة أمر منه بالحضور ، ولم يكن هناك داع للتردد ، لاسيما وأنه كان إنساناً رقيقاً مهذباً حلو الحديث ، لطيف المعشر والمحضر . . وأنه لم يكن — فيما عدا مسألة

المعبد — يبدو عليه أى مظهر من مظاهر شذوذ الفنانين . . ولا سيما أيضاً أنه وفر علىّ حرج سؤاله عن المعبد بقوله من باب الإيضاح :

— لن تجد كثير صعوبة فى الاستدلال على المعبد فهو كائن فى شارع كذا رقم كذا .

ثم بدأ يشرح لى بالتفصيل كيفية الوصول إلى المعبد .

ولم أحاول — رغم جهلى بالمنطقة التى يقع فيها المعبد — أن أستزيده إيضاحاً فقد كرهت لنفسى أن يبلغ بها الجهل هذا الحد ، وأن أبقى على قيد الحياة فى القاهرة ثلاثة وثلاثين عاماً ، دون أن أعرف أن فى القاهرة معابد . . ولا أسعى لرؤية بعضها .

وفى الساعة الثامنة مساء بدأت السعى للمعبد . . وظللت أدلف من شارع إلى شارع . . وكان الحى مظلم مقفر ، يقع فى طرف من أطراف القاهرة المجاور للمقابر ، وأخيراً وصلت إلى الشارع المطلوب .. وبدأت التنقيب عن النمرة ، ولم أدقق كثيراً فى البحث عن النمرة . . إذ كنت أعتقد أن المعبد غرض شهير مميز . . وأنه لابد مسترعى التفاتى وسط غيره من البيوت العادية القائمة فى الشارع .

وقطعت الشارع ذهاباً وإياباً دون أن يلفت نظرى مبنى

غير عادى وسط البيوت القائمة فى الظلمة . . لا مآذن ، ولا قباب ، ولا أى هيكل ينم عن المعبد .

وهكذا لم أر بداً من التدقيق فى البحث عن الرقم المطلوب . . وسرت أقرأ أرقام الدور واحداً واحداً . . حتى وقفت أخيراً أمام الرقم المقصود .

عجباً ! إنه بيت عادى كغيره من بيوت الشارع .

لا بد أن يكون هناك خطأ أو لبس ، إذ ليس على البيت أى سمة من سمات المعابد ، ووقفت لحظة متردداً أمام البيت وكان بيتاً عادياً مكوناً من بدروم ودورين وتحيطه حديقة صغيرة وسور حديدى .

ومددت يدى إلى الجرس وضغطت عليه وقلت لنفسى :

— إسأل . .

وسمعت صوتاً يصيح من البدروم :

— مين ؟

وهنا وضحت المسألة ولم يعد هناك معنى للتردد ، فقد كان الصوت صوت صاحبي الفنان ، ولم أحاول السؤال بالطبع بل دفعت الباب الحديدى ودخلت أتلمس طريقى فى ظلمات الحديقة إلى باب البدروم .

وسقط على الضوء الخافت الخارج من الباب ، فاستطاع

صاحبي أن يميزني واندفع في سيل من الترحيب الحار قائلا :

ـ أهلا .. أهلا .. يا مرحباً .. تفضل نوّرت المعبد .

وتفضلت .. ولكني قطعاً لم أنير المعبد ، فقد استمرت الظلمة الجاثمة في أرجائه والتي لم تفلح في إضاءتها ذبالة الشموع الخافتة .. جاثمة كما هي .. لم تتأثر قط بدخولي .

وتلفت حولي أفحص المعبد . . فوجدته بدروم عادي مقفر خرب .. مظلم رطب . لا يفترق عن أي بدروم آخر . إلا في أن صاحبنا الفنان زاد من مظاهر الفقر والخراب ، وأمعن في إبرازها فاصطنع من أعمال الديكور والزخرف شقوق ظاهرة في الجدران وتهديم في الأركان . . وإسقاط للبياض في الأسقف وهضاب ووهاد في الأرض . . وبين مظاهر الخراب والبؤس هذه وضع أثاث المعبد وهو بيانو في أحد الأركان ، وعود معلق في ركن آخر . . ومقاعد ووسائد وأرائك متفرقة هنا وهناك .

وطاف بي صاحبي في أرجاء المعبد . . طواف معجب متفاخر .. ثم استقر بنا المقام في إحدى الحجرات الرطبة العفنة المظلمة .

ومرة أخرى كرهت نفسي . . فقد أحسست أني غير فنان . . أو فنان غير أصيل . . إذ لم يصادف المعبد هوى

فى نفسى ولم أشعر وأنا جالس وسط هذا الخراب والرطوبة والظلمة بارتياح وانسجام .. ومع ذلك فلم أكن أملك إلا أن أوافق صاحبى على إعجابه وطربه . . فإن خجلى يدفعنى دائماً إلى أن أكون منافقاً كبيراً .

قال صاحبى :

— هنا أضع ألحانى .. هنا يهبط الوحى . . وسط ذلك الصمت المخيم والسكون السائد وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة .. هنا فى هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتمة ، التى تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية . . هنا فى هذا المعبد الملىء بالسحر والطلاسم .

وهززت رأسى وقلت موافقاً وأنا أزج فى قولى ببعض مترادفات الأبدية واللانهائية والدياجير :

— أجل ! أجل ! إن سحره عجيب . . إنه يبدو كأنه كهف الأقدار يمتد من بطون الماضى إلى وهاد الأبد .

وطال بنـــا الحديث فى كهف الأقدار بين الأغوار والدياجير والماضى والأبد . . حتى حان وقت انصرافى فودعته وانصرفت .

تلك كانت المرة الأولى لزيارته ، وطالت بنا الفرقة حتى التقيت به أنا وصديق لى ذات مرة فى إحدى المحلات العامة

فأصر على أن أزوره فى تلك الليلة أنا وصاحبى .

ورحبت بالدعوة فقد كان ـ كما سبق لى القول ـ إنساناً لطيفاً .. وكانت جلسته محببة إلى نفسى .. وكان صديقى هذا يتوق إلى رؤية المعبد بعدما حدثته عنه .

وقصدت إلى الدار .. ولم يطل بى البحث عنها هذه المرة وسرعان ماوقفت وصاحبى أمام الباب الحديدى أدق الجرس.

ولم يجبنى الصوت من البدروم هذه المرة ، فقد كان معتما لايبدو به بصيص ضوء ، بل أجابنى صوت الفنان من إحدى نوافذ السلاملك وهتف بى مرحباً :

ـ أهلا وسهلا . . تفضل .

وانتظرت أن يهبط من السلاملك ليقودنى إلى المعبد ، واتخذت طريقى إلى بابه ، ولكنه نادانى بصوته الجهورى :

ـ إطلع هنا . . إن المعبد به بعض التصليح ولا يصلح لاستقبال الزائرين .. تفضل .

وسحبت صديقى من يده وسرنا نتلمس طريقنا وسط الظلمة إلى باب البيت ، وقبل أن نصل إلى الباب أضىء نور السلم وبدا على ضوئه مدخل البيت أنيقاً نظيفاً ليس به شىء من قفر المعبد وخرابه .

ودلفنا من الباب إلى الفناء الداخلى . . فوجدنا السلم

الرخامى يتوسطه وقد بدا نظيفاً لامعاً . . وبدت الجدران مطلية بالزيت ومحلاة بالنقوش . . والمدخل كله ينم عن الروعة والفخامة والنظافة . . إلا من شيء واحد أثار دهشى وبدا نشازاً فى المدخل الفخم . . وذهب بكل ما به من نظافة وأناقة .

فى باطن السلم ، أو ما يسمونه « بير السلم » وجدنا كوم من الحجارة والزلط والأتربة والردش كأنها بقايا جدار مهدوم أو آثار عمارة . . وفى وسط الكوم المترب ووراء جدار السلم قام جذع شجرة جاف «مقاحف» ملىء بالفروع اليابسة والبراعم المنكمشة .

ونظر إلىّ صاحبي وهز رأسه أسفاً وقال :

ـــ أنظر إلى الخدم والبوابين ، ماذا كان يضيره لو رفع هذه القاذورات وألقى بهذا الحطب فى الحديقة . . بدل أن يتركه هكذا مشوهاً مدخل البيت .

وقلت موافقاً :

ـــ منتهى الإهمال .

وصعدنا الدرج وأنا آسف على إهمال البواب وقذارته وإن كان أسفى يشوبه شيء من الحيرة المستترة والشك الخفى .

ولقانا صاحبي الفنان أمام باب الشقة مهللا مرحباً . .

وأخذنا بالحضن ، ثم قادنا إلى داخل الشقة ، وهممت بأن ألفت نظره إلى القاذورات التى كومها البواب فى بير السلم ، لولا ذلك الشك وتلك الحيرة اللذان كنت أشعر بهما .

أجل ! لقد كان يساورنى شك . . ضعيف جداً وبعيد الاحتمال جداً ، إلى درجة أننى لم أجرؤ على التصريح به .. ولكنه مع ذلك كان يساورنى .

هذا الشك هو احتمال أن يكون هذا الكوم والحطب موضوع عن قصد وبفعل فاعل . . وأن يكون الفاعل هو صاحبي الفنان نفسه .

ولهذا السبب لم أجسر على إبداء أية ملحوظة عنها . . ولا أن أصرح بأى رأى فيها خشية أن أبدو جاهلا وأن أسبب للفنان خيبة وفجيعة .

أى خيبة أمل كان يشعر بها صاحبي الفنان ، لو أنه قد وضعها بقصد معين وخطة مرسومة ، وقلت له عنها إنها قاذورات ومخلفات تركها البواب ؟!

ولذلك آثرت الصمت ، وفضلت أن أتجاوز عن كوم الأتربة والشجرة الجافة وألا أبدى بشأنهما أى سؤال رغم أنهما كان يشغلان حيزاً كبيراً من تفكيرى ، ورغم أنى كنت تواقاً إلى استطلاع حقيقة أمرهما ، حتى لا أفضح نفسى ،

وأخجل صاحبي .

وجلسنا فى صالة أثثت على الطراز العربى ، منخفضة الأرائك .. مزركشة بالصدف ، تناثرت فيها آلات الطرب والموسيقى .

وصفق مضيفى بيديه صائحاً :

ـــ أم عبده .

وأتت أم عبده ، ترفل فى ثوب فضفاض أسود فأمرها بتجهيز القهوة .

ولم تكد تختفى « أم عبده » حتى قفز من مقعده قائلا :

ـــ ستحضر لك أم عبده قهوة من اليمن .. بن يمنى أصلى وسأحضر لكم أنا شيئاً من زحله . . زبيب زحلاوى على كيفكم .

وحضرت القهوة مع « أم عبده » وتوسكا ، وهى كلبة كبيرة فى حجم أم عبده ، ثم أحضر هو الزبيب .

ولم يكد يستقر به المقام حتى قفز مرة ثانية قائلا :

ـــ سأحضر لكم شيئاً من اليونان .

ثم أحضر لنا بعض قطع من البطارخ .

وبدأنا السهرة . . وطال بنا الحديث . . وكوم الأتربة والشجرة الجافة ما زالت تساور ذهنى . . وتدس بنفسها

فى تفكيرى . . والسؤال عنها يتراقص على شفتىّ . . ويهم بالانطلاق .

وفجأة وبلا سابق إنذار . . رأيت صديقى الفنان يميل علىّ ويسأل فى لهجة مليئة بالفخر والكبرياء ، وهو يشير بإبهامه إلى ناحية السلم :

ـــ أرأيتها ؟

واستطعت من منظره وإشارته وطريقة سؤاله أن أدرك جلية الأمر بوضوح ، وأن أفهم أن تشويه منظر المدخل بالأتربة والحطب من فعل صاحبى الفنان نفسه وليس من إهمال البواب ، وأنها قد أصبحت بناء على ذلك مسألة تستحق التقريظ .

وأجبته بحماس شديد وأنا أميل عليه كما مال علىّ :

ـــ رأيتها .

ـــ وما رأيك ؟

ـــ بديعة . . آية فى الإبداع .

وكان صاحبى الآخر يتبع المناقشة وقد بدا عليه الذهول ، غير دارٍ ما هى هذه التى رأيتها آية فى الإبداع .

وبدأ الفنان تفسيره قائلا وهو يهز رأسه من فرط الإعجاب :

— إنها قطعة خالدة من السيريالية . إنها شجرة الفناء . الفناء اللانهائى السحيق ، أرأيت الأرضية التى فى أسفلها . إنها تمثل القفر والخراب ، وترمز إلى التراب الذى يختلط بالرميم ، ومن وسط هذا نبت الجفاف والذبول ، قائم كأنه العظام النخرة . إنه تابلوه رائع ، كل شىء فيه موضوع لحكمة ولغرض ، كل فرع جاف يرمز إلى شكل من أشكال الفناء . لو تأملت فيها ملياً لأبصرت العجب . أرأيت هذه الزلطة الموجودة فى الركن أسفل السلة السابعة . إنها ترمز إلى الجماجم الخاوية ، التى كانت كالزلط . أما الحجرة المقلوبة على جانبها فهى تمثل القلوب التى كانت كالحجر . أما الشجرة نفسها فهى تحتاج إلى دراسة طويلة . إنها ليست شجرة عادية كما قد يبدو لك . لقد ظللت أبحث عنها مدة طويلة حتى وجدتها أخيراً ملقاة على قارعة الطريق بعد أن اصطدمت بها سيارة مسرعة .

وقضينا الجلسة كلها نتحدث عن شجرة الفناء . وأنى أحمد الله الذى منّ علىّ بالستر فلم أشك له إهمال البواب وتركه القاذورات والحطب فى بئر السلم . وأخيراً نهضنا للانصراف وهو يقول :

— إنى أنوى أن أقدمها للعرض فى أول معرض

للسير يا ليزم . . وإنى أقدر لها ثمناً يزيد على الألف جنيه . فلا أظن هناك لوحة يمكن أن تمثل الفناء كما تمثله هى .

وخرجنا من الشقة وبدأنا نهبط السلم وقد وقف هو يودعنا على بسطة السلم .

وفجأة رأيته يفغر فمه ويحملق بعينيه فى بئر السلم ويبدو عليه فزع شديد .

وذهلت ، ولم أملك إلا أن أنظر إلى حيث أخذ يحملق بعينيه ، أعنى فى بئر السلم حيث وضعت شجرة الفناء . فإذا بى أرى المكان نظيفاً أنيقا لا أثر فيه للأتربة ولا للحطب الجاف ، وإذا بمدخل الدار قد عاد إليه رونقه وزالت عنه الغمة .

ولكن صاحبى لم يكن يرى هذا الرأى ، بل كان يعتبر المسألة فاجعة وصاح بأعلى صوت :

— الشجرة ، أين الشجرة ؟ لقد سطوا عليها اللصوص ، ياعم على ، ياعم على .

وهبطنا نحن الثلاثة بسرعة نبحث عن عم على البواب ، فإذا بنا نجده قد افترش الأرض على باب حجرته ، ووضع أمامه منقداً مشتعلا وأخذ يلقى فيه بين آونة وأخرى بقطعة من الحطب ، وعلى مقربة منه كانت تجثم أشلاء الشجرة وقد حطمها الرجل ليتدفأ بحطبها .

وهجم صاحبي على « عم على » يمسك برقبته ويصيح :

ـ أيها الجاهل الأحمق ماذا فعلت بشجرة الفناء ؟

ـ شجرة إيه ؟

ـ الفناء . . . الفناء .

ووجدت البواب يوشك أن يختنق تحت ضغط يد الفنان ، فأسرعت أخلص البواب منه خشية أن يرتكب جريمة قتل ، وقلت له :

ـ يا أستاذ لاداعى لكل هذه الثورة ، إن « عم على » كان يقصد معاونتك .

ـ معاونتى أنا . كيف ؟

ـ ألم تكن هذه شجرة الفناء ؟

وأشرت إلى كوم الحطب المجهز للوقود . وأجاب الفنان :

ـ أجل ، لقد كانت كذلك .

ـ فعلام الغضب إذاً ، لقد جعلها عم على ، منتهى الفناء. لقد أضحت فناء الفناء .

ونظر صاحبي إلى النيران وإلى كوم الحطب ثم هز رأسه موافقاً وأجاب :

ـ معك حق ، هيا بنا ، برافو « عم على » ، أنت شيخ السيرياليين .